المحاضرة الثالثة:

ظاهرة التحضّر في التاريخ الإنساني

أولا / الإنسان و غريزة التحضر :

استطاع الإنسان البدائي بعقله مقاومة الطبيعة القاسية ، و أن يتغلّب عليها ، ويدافع عن بقائه بين المخلوقات المتنافسة على البقاء فيها . وقد ازدادت مقدرته وخبرته إلى حد كبير عندما أصبح أول المخلوقات ـ بل الوحيد من بينها ـ الذي تمكن من صنع الأدوات ، التي كان من أولها تحسين شكل الحصاة التي التقطها ، وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذي أراد أن يستعملها فيه ، حتى غدت قطعة الحجر هذه رمزا متميزا للعصر الحجري الذي كان قبل مائتي ألف سنة مضت .

وتقدّمت خبرة الإنسان في صناعة الأدوات والآلات ، التي كان لها أعمق الأثر في ارتقائه ، بعد تجربة بطيئة ومجهود طويل .

وهكذا كان العمل أول عامل من عوامل الحضارة: صناعة، ثم زراعة .. أي استقرار وأسرة وقبيلة، ثم نقل وتجارة وتبادل سلع...

كما نشأ نوع من تنظيم للحياة والمجتمع ، فقامت سلطة (حكومة) لحماية الإنسان من الأخطار والكوارث التي تحيط به .

تلا هذه الخطوة ظهور أعراف وقوانين و شرائع.. نظمت ما يجيش في الإنسان من شهوات ، وأخضعتها للطريق السوي ، فبغير القانون تنحل الجماعة أفرادا، وتسقط فريسة لمجتمع أو دولة أو سلطة أخرى ، يكون فيها التماسك الاجتماعي أمتن و أقوى يقول (ول ديورانت) : " ويندر أن يأتي الموت إلى المدنية من خارجها ، بل لابد للانحلال الداخلي أن يفُتّ في نسيج المجتمع أولا،

قبل أن يتاح للمؤامرات أو الهجمات الخارجية أن تغيّر جوهر بنائها ، أو أن تقضي عليها قضاء أخيرا ."

وفي ظل هذه الدول والمجتمعات المستقرة ، ظهرت الأديان ، وتوحّدت العبادات في كل منها ، وأكثرها متشابه تمام التّشابه وإن اختلفت في جزئياتها . ونحن نرى أن الأديان كانت في أول أمرها نواميس سنّها الله عزّ وجلّ للإنسان بوساطة أنبيائه ، قال تعالى : { وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} فاطر 24 ، كي يعيش الإنسان بطمأنينة وحرية وهناء . ومن المعلوم أن العقائد الوثنية عرفت في كل المجتمعات القديمة، ولعل السب في ذلك هو أنه عندما يأتي النبي يتبعه قومه ، وبعد وفاته يُدخل الناس إلى تعاليمه بعض العقائد الوثنية ، التي كانت قبل مجيئه، وقد يقتبسون من بعض الديانات الوثنية الأخرى أشياء وتعاليم يحشرونها في دينهم ، لذلك لا تخلو عقائدهم من لمحات صحيحة وأفكار سليمة .

لقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة البدائية في الكثير من أرجاء آسيا و إفريقيا و أوربا ، ولا يعرف أحد في أي مكان تمت جميع المراحل التي ساعدت على تكوين حضارة ... هذه العملية التي لم تكن متساوية ، أو على مستوى واحد في أمكنة مختلفة في العالم ، فمثلا استطاع كلّ من سكان مصر وبلاد الرافدين من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربي أوربا أي طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة .

وكانت لمصر وبلاد الرافدين صلة تجارية بغيرهم من الأمم بواسطة السفن، في الوقت الذي كان فيه الأوربيون مازالوا يبنون مساكنهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا أية وسيلة من وسائل الملاحة غيرا لزورق المنحوت من جذع الشجرة .

ثانيا / مهد الحضارة :

إذا كانت هذه هي بدايات التدرج الإنساني في سلم التحضر، والذي لا نعلم عنه إلا القليل ، فمن حقنا أن نتساءل: أيّ الحضارات العالمية أُنشئت أو ظهرت أوّلا ؟ و بصياغة أخرى أين كان مهد الحضارة الأولى ؟ هل هي المناطق القاحلة في آسيا الوسطى ، التي كانت في يوم من أيام التاريخ السحيق تتمتع بمناخ معتدل مطير،حيث عثر في(أناو) جنوب تركستان على خزف وآثار تدل على حضارة يعود تاريخها إلى 5000 سنة ق م ؟

يرى بعض المؤرخين ذلك ، ويذكرون أنه لما جفّت تلك المنطقة و أقفرت بمرور الزمن ، اندفع أهلها عبر ثلاث قنوات :

. شرقا: إلى منشوريه والصين وأمريكا الشمالية عبر مضيق (بيرنج Biring . الواقع بين آسيا وأمريكا.) .

. جنوبا : إلى شمالي الهند ، حيث عثر (جون مارشال) عام 1924 على الضفة الغربية من حوض نهر السند الأعلى . موقع : موهنجو، دارو . على مدينة بالغة الرقي ، قامت خلال الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد .

. غربا : إلى عيلام ، حيث عثر في عاصمتها سوزا (السوس، شوشان) على حضارة راقية يرجع عهدها إلى عام 4500 ق م ، حيث الزراعة واستئناس الحيوان ، وعرفوا كتابة مقدّسة ووثائق تجارية سجلت حركة تجارتهم التي امتدّت من الهند إلى مصر . كما عثر فيها على عجلة الخزّاف ، وعجلات المركبات ، ومزهريات رشيقة . وتشبه آثارسوزا آثار أناو ، مما جعل المؤرخين يفترضون أنه قد كان بينهما صلات حوالي 4000 ق م . وهناك شبه كهذا في الفنون و المنتجات القديمة بين بلاد ما بين النهرين ومصر ، يوحي بوجود علاقة كبيرة بينهما وارتباط يدل اتصال مجرى الحضارة .

ويرجح آخرون من علماء الآثار والتاريخ . مع تزايد المعرفة . أنّ دلتا الفرات ودجلة شهدت أول معالم الحضارة الإنسانية . وقرّر آخرون : أنّ مراحل الحضارة القديمة نشأت شرق البحر المتوسط في مصر وبلاد الرافدين .

ويمكننا القول بأن دلتاوات الأنهار الكبرى في بلاد الرافدين ومصر والهند والصين .. كانت مهد الحضارة ، علما أن فريقا من الباحثين في الحفريات و الأجناس من الأمريكيين و الفرنسيين العاملين في أثيوبيا توصلوا إلى اكتشاف بقايا إنسان (هيكل عظمي) ، يرجع تاريخها حسب تقديرهم وفقا لنشاط (الكربون 14 المشع) إلى أكثر من خمسة ملايين سنة .